اللغة والتباين الاجتماعي

أ. رمضان يوسف

جامعة معسكر

الجزائر

أجمع الدارسون للعلوم اللغوية على أن اللغة ظاهرة اجتماعية إنسانية فكرية لا تحيا إلا في ظل مجتمع إنساني، وأن العلاقة بين اللغة والمجتمع تولدت حين احتضن المجتمع اللغة، التي تكونت ووُجدت يوم أحسَّ الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم، فبها يحدث التعبير والتواصل والتفاهم والتوافق، وبها أيضا يحصل التنافر والاختلاف، وتكمن إنسانية اللغة في كونها تحمل عواطف الإنسان وشعوره وخلجاته. و اللغة ظاهرة اجتماعية اقتضتها حياة البشر، وقد منح الله تعالى الإنسان، قوة العقل والاستعداد للتفاهم والكلام، واللغة أهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها وهي عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات المجتمع.

ولقد هيأت اللغة، بوصفها ظاهرة اجتماعية نفسية بيولوجية ، المخاض لولادة فروع علمية، تبحث في نشأة اللغة وتاريخها وأشكالها وقانونية وجودها،ومن بينها اللسانيات الاجتماعية، وقد أدَّى تطور الدراسات والأبحاث اللغوية الجارية اليوم، إلى ظهور ميدان جديد يتمثل في دراسة اللغة وتطورها على ضوء العلاقة الجدلية التي تقوم بين اللغة والحياة

الاجتماعية، وكان العالم "دوركايم " قد نبَّه علماء اللغة، على أن الظاهرة اللغوية كالظاهرة الاجتماعية ،يمكن أن تُرصد وتُلاحظ، كما يلاحظ عالم الطبيعة الأشياء، ويتخذها موضوعا لدراسته.

وفي هذا المقام، يقول " دي سوسير": "إن جزءا كبيرا من العالم الحقيقي يوجد بشكل لا شعوري في العادات اللغوية لشعب ما"(بشر،ك: 1997،ص 79). وفي نفس السياق يقول عالم النفس الأمريكي "دينلاب": "انه يمكننا أن نعرف أشياء كثيرة عن حياة الشعوب والأمم عن طريق دراسة وتحليل اللغات التي تتكلمها (وايف،ع: 1951، ص63)".

فاللغة إذن تُعد مرآة المجتمع الذي يتكلمها، ومن خلالها تظهر القيم الروحية والحضارية من رقي أو انحطاط، وما يخضع له من نظم وعقائد واتجاهات فكرية وفنية وثقافية واجتماعية. وذلك يعني أن اللغة تتأثر تأثرا واضحا بكل الظواهر الاجتماعية، فهي بدوية في المجتمع البدوي، حيث تكون محدودة الألفاظ والتراكيب والخيال، وتفتقر إلى المرونة والأسلوبية الراقية، ولا تتسع لكثير من الفنون التعبيرية الراقية.

وتتعدد وظائف اللغة بتعدد مظاهر الحياة الاجتماعية، ومختلف ألوان السلوك الإنساني، وتُستعمل لتأكيد الشعور بالانتماء إلى المجتمع، وتتخذ صورا كلامية كثيرة كألفاظ التحية، وعبارات المناسبات الاجتماعية المختلفة، والأدعية والطقوس الدينية. ولهذا الضرب من الاستعمال اللغوي وظيفة اجتماعية أخرى تكشف عن انتماء الفرد لدينٍ معينٍ، كأن يقول أحدهم مثلا: (السلام عليكم) يدل على انتمائه إلى مجتمع إسلامي، ويقول

آخر (باسم الأب والابن والروح القدس) يدل انتماءه إلى مجتمع مسيحي دون النظر إلى المعنى الحرفي لهذه العبارات.كما أن لغة الفرد لا تبقى ثابتة في جميع مراحل حياته، بل تنمو بنموه العمري والثقافي، وتتغير بحسب ما يتعرض له من تطور اجتماعي.

التباين الاجتماعي:

يعدّ التباين الاجتماعي سمة من سمات الكون، إذ يمس جوانب عدة من الحياة سواء كانت مادية أم معنوية، ويمتد إلى الأفراد والجماعات، ليشمل القيم والعادات والثقافات. ويرتبط بالنمو والتقدم والتكنولوجيا والإعلام. وهو عملية اجتماعية تتحقق عن طريقها تغيرات في النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعائلية ....

والتباين صفة أساسية ملازمة للمجتمعات على اختلافها، زراعية كانت أم صناعية، رأسمالية أم اشتراكية، نامية أم متقدمة.

واللغة جزء لا يتجزأ من النظام الاجتماعي السائد، وعلى هذا فهي تتأثر - ولا شك- بما يسود المجتمع من تغيرات اجتماعية، وإنها تتبع وتعكس هذا النظام الاجتماعي السائد، وبذلك تصبح اللغة عاملا فعالا في بناء النظام الاجتماعي المستقبلي.

إن النظر إلى اللغة كنظام متكامل، يقتضي منا أن ننظر إلى اللغة بوصفها نظاما للإدراك والاتصال والمعرفة، وهذا يعني أنه يجب أن ننظر إليها بوصفها معطى اجتماعي يتحدد ويتشكل في إطار الوسط الاجتماعي شكلا ومضمونا. (كالفي،ج: 2004، ص80).

إن الاعتقاد أو الافتراض بأن جميع أعضاء المجتمع الواحد، يتكلمون لغتهم القومية بنفس الطريقة لفظا وأسلوبا واستعمالا اعتقاد مضلل (أبو ريشة،ز: 1996،ص113) ؛ إذ هناك فروق واضحة في اللفظ والنحو واللحن في جميع المجتمعات اللغوية في العالم، تظهر في كلام المنتسبين إلى تلك المجتمعات، فمن جهة هناك فروق واضحة في اللكنة أي الطريقة التي تلفظ بها مفردات اللغة، نميز بها الأجنبي حتى ولو احترم قواعد اللغة ومفرداتها، كما أن هناك اختلافات تظهر في كلام المتحدثين بلغة قومية واحدة كما هو الحال في الاختلاف بين اللكنة البريطانية والأمريكية.

إن دراسة اللغة في ضوء سُنَّةِ التطور يقتضي أن يوفر أسلوب البحث منهجاً جديداً يتصف بنوعين من العلاقات هما: العلاقات المتعاقبة، والوصفية، والعلاقات المعاصرة والتاريخية.

وتتأثر اللغة في تطورها بعوامل أهمها: (السامرائي،إ: 1966،ص 193):

1-عوامل اجتماعية خالصة تتمثل في حضارة الأمة وعاداتها وعقائدها, ومظاهر نشاطها العلمي والعقلي, وثقافتها العامة، واتجاهاتها الفكرية، ومناحي وجدانها ونزوعها.

2- عوامل أدبية تتمثل في نتيجة قرائح الناطقين باللغة، وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية، وما إليها في سبيل حمايتها والارتقاء بها.

3- عوامل لغوية ترجع إلى طبيعة اللغة نفسها وطبيعة أصواتها وقواعدها.

4-عوامل طبيعية تتمثل في الظواهر الجغرافية والفيزيولوجية.

تتأثر اللغة تأثرا كبيرا بحضارة الأمة، وتقاليدها، و اتجاهاتها العقلية، ونظرتها للحياة، وشؤونها الاجتماعية العامة، فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير، وكلما اتسعت حضارة الأمة وكثرت حاجاتها، تهذبت اتجاهاتها النفسية، ونهضت لغتها وسمت أساليبها، وتعدّدت فيها فنون القول، وانقرضت معاني مفرداتها القديمة، وحلت محلها مفردات جديدة عن طريق الوضع والاشتقاق للتعبير عن المسميات والأفكار المستحدثة.

يطلق الدكتور "علي عبد الواحد وافي" على تباين اللغة في المجتمع اللهجات الاجتماعية، فقد تتشعب أحياناً لغة المحادثة في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعا لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم. (وافي،ع: 1951،ص 188) ويطلق عليها الدكتور "كمال بشر" اللهجة المحلية ، فكل لغة أو لهجة محلية تبدو فيها تنوعات كلامية - قليلة أو كثيرة- في بنيتها تعادل تنوعات البنية الاجتماعية في المجتمع المعين، وبقدر الاختلاف في البنية الثانية يكون الاختلاف في الأولى، فمن المعلوم أن كل مجتمع تنتظم في إطاره طبقات أو فئات من الناس تختلف في ما بينها اقتصاديا وثقافيا وسياسيا، كما تختلف من حيث منزلتها في السلم الاجتماعي (فندريس،ج:1950، ص 31).

واستنادا إلى ما تقدم، نستطيع القول أن شكل اللغة ومستواها يتأثر بالظروف الاجتماعية السائدة في كل وسط اجتماعي. والسؤالان اللذان نستطيع طرحهما هنا: ما حدود التباين اللغوي في المجتمع الواحد؟ وكيف يمكن حصر مستوى اللغة عند كل فئة اجتماعية ؟

لنجيب أن من بين أهم صور التباين اللغوي في المجتمع، نذكر ما يلي:

1- اللغة والجنس:

إن ما يوضح الأثر الاجتماعي في السلوك اللغوي، هو دراسة السلوك اللغوي للجنسين، وارتباط التنوعات اللغوية بالعامل الاجتماعي والاقتصادي. فالتباينات في الكلام بين الرجل والمرأة، لا يمكن دراستها بنجاح بمعزل عن المواقع الاجتماعية المختلفة وغير المتساوية في القوة، والتي يجب بحثها ودراستها من منظور اجتماعي خالص. ففي دراسة ميدانية جرت بكندا والولايات المتحدة الأمريكية، سجل الباحثون جملة من الخصائص المشتركة في لغة المرأة، وهي (بوقربة،ل:2009، ص 10):

نطق وأداء صوتي جيد - تنوع في الجرس الصوتي والموسيقي للخطاب - غلبة الخطاب الوصفي - صيغ غير مباشرة في الخطاب، والتزام قواعد اللباقة - حركات وإشارات أكثر- احترام قواعد اللغة - نسبة أقل من الألفاظ البذيئة - نبرة صوتية مرتفعة - مدة كلام أكبر وأطول.

ولم تكن هذه الخصائص محل اتفاق بين العلماء والباحثين في هذا المجال، فقد سجل البعض نتائج مناقضة للنتائج السابقة، ولقد دلت دراسة قام بها "فيشمان" على عينة من الأزواج، فبين أن نسبة الاقتراحات التي ينفذها الزوجان في حياتهما الأسرية، أن نسبة الثلثين منها هي من اقتراح الرجل، مع العلم أن المرأة تقترح ضعف ما يقترحه الرجل (بوقربة،ل:2009 ص 11).

وفي نفس المجال قام الباحث العربي " عيسى برهومة" بدراسة استنتج فيها أن الاختلاف بين الجنسين مبعثه المجتمع والموروثات الثقافية، وليس

العوامل الفيزيولوجية والبيولوجية. وأن اتساع الهوة في الخصائص اللغوية بين الجنسين يتناسب تناسبا طرديا مع التواصل والمشاركة، فكلما حضرت المرأة إلى جانب الرجل في المشهد الحياتي، قلت الاختلافات اللغوية بينهما، وكلما تقوقعت في حراسة الهيكل المنزلي، وتوارت عن الشهود، زادت الاختلافات بين الجنسين وتعمقت (برهومة،ع: 2002،ص 150).

2 – اللغة والمهنة:

لقد أولت اللسانيات الاجتماعية اهتماماً متميزاً لدراسة الخصائص اللغوية العائدة لمجموعات مهنية أو فئات اجتماعية، فدعا " هاريس" إلى دراسة أثر النشاطين الاجتماعي والمهني على الأسلوب اللغوي،(بشر،ك: 1972، ص193). ورأى "مالينوفسكي" أن اللغة ضرب من العمل، وأن مواقف العمل هي التي تعمل على تنويع اللغة (السامرائي،إ: 1961،ص 201)، كما رأى "وورف" أن النموذج اللغوي المعين يرتبط بالنماذج الثقافية المجتمعية،(ميشال،ز: 1972،ص 185) وهذا الأنموذج اللغوي هو الذي يجعل بمقدور الإنسان أن يتواصل مع أمثاله بدقة بالغة، ولهذا رأى " ميبه": "أن من الواجب أن نحدد كيف تتمثل تغيرات البنية الاجتماعية، بطريقة عامة في تغييرات البنية اللغوية" (السعران،م: 1958، ص38). ومن جانب آخر فإن اللغة تتأثر بالمجموعات والفئات الضيقة داخل المجتمع الواحد، أو المنطقة الواحدة إلى مستويات لغوية متباينة تبعا لتباين واختلاف طبقات المجتمع وفئاته الاجتماعية، فتتشعب لغة المحادثة في المنطقة السكانية إلى لهجات تبعا لاختلاف مهن الناس، فتكون ثمة لهجة للمتعلمين تختلف عن لهجة الأميين، والمتعلمون

يختلفون لهجةً فيما بينهم باختلاف درجة تعلمهم، وباختلاف مهنهم، ولهجة أخرى للطبقة الوسطى، ولهجات للرياضيين، وللنجارين، وللجنود، وللبحارة، ولذوي المهن جميعا. وزيادة على ذلك فإن المرافعة القانونية الموجهة إلى القضاة مثلا تختلف عن الخطبة الدينية، وتختلف عن الحوار الذي يقوم به المحامي وموكله، وكل منها يفترض أشكالا لغوية معينة. وكخلاصة لما سبق فإن لكلٍّ من هذه المجموعات ثروتها اللفظية الخاصة بها، وهي ثروة تعكس خصائص الموضوعات والمناقشات، التي يتناولها الأعضاء فيما بينهم.

3 – اللغة والمكان:

" وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية، يزيد الإنسان ذكاء في عقله وإضاءة في فكره، بكثرة الملكات الحاصلة للنفس إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالإدراك وما يرجع إليها من الملكات، فيزدادون بذلك كيسا لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية، فيظنه العامي تفاوتا في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك، ألا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو كيف تجد الحضري متحليا بالذكاء...حتى أن البدوي ليظنه قد فاته في حقيقة إنسانية وعقله وليس كذلك وما ذلك إلا لإجادته في ملكات الصنائع والآداب في الموائد والأحوال الحضرية ما لا يعرفه البدوي"(ابن حلدون،ع: 2003،ص73). هذا الكلام للعلامة "ابن خلدون"، يبين ويوضح الفرق بين البدوي والحضري، في ملكات العقل والذكاء، ولما كانت اللغة جزءا من ملكات العقل، فقد سجل الباحثون جملة من الاختلافات بين لغة البدو

ولغة أهل المدينة، فلغة أهل البدو تكون محدودة الألفاظ والتراكيب والخيال، وتفتقر إلى المرونة والأسلوبية الراقية، ولا تتسع لكثير من الفنون التعبيرية الراقية، كما لاحظوا جملة من الاختلافات في الصوت، فللمكان أثره في اللغة، فقد لاحظ اللغويون أن لغة سكان البادية تختلف عن لغة سكان المدينة. فلغة البدوي خشنة الألفاظ، غليظة الأصوات، يحتاج صاحبها إلى صوت مرتفع غليظ يملا به الفراغ الذي يحيط به، بغية الوصول به إلى ما يريد من أماكن، وليست هذه الآية الكريمة إلا دليل على ارتفاع صوت البدو. يقول تعالى "**إِنَّ الذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الحُجرَات أَكْثَرهُم لا يَعْقِلون**".(**سورة الحجرات، الآية 4**) ولكن بعد أن تَحضَّر البدو وسكنوا المدن لوحظ تغير في طرق التعبير، وأداء الأصوات، ونظام القواعد.(وايف،ع: 1973، ص 233-236 بتصرف) هذا لأن ساكن المدينة يجد كل شيء أمامه، مما يُغنيه عن رفع الصوت، فتتهذب لغته تلقائيا.

4 – اللغة والزمان: تتأثر اللغة بعامل الزمان على منطلقين:

أولا: على منطلق السن، فلغة الفرد ليست ثابتة في كل مراحل نموه، بل متغيره ومختلفة بين مراحل الطفولة والشباب والشيخوخة، ويكون هذا الاختلاف في اللغة كوسيلة اتصال مهما كان نوعها أو شكلها: شفوية ، إشارات أو إيماءات. *ثانيا:* على منطلق انتقال اللغة من جيل إلى جيل، هذا الانتقال يترك أثره في أصوات اللغة ومفرداتها ونظمها وتراكيبها.(هلال،ع: 1984، ص36) ففي المفردات تنقرض كلمات كانت مستعملة ومتداولة بكثرة في زمن ما، وفي المقابل تُوَلَّدُ كلمات ومفردات جديدة، حسب التطور

الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وكذلك بالنسبة للنظم والتراكيب، فكل جيل له لغته ومصطلحاته وخصائصه التي يتميز ويتعامل بها.

وما دامت سنة الطبيعة تقتضي أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له، فلا بد أن تختلف اللغة أيضا، في كلماتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها، باختلاف العصور، واختلاف الشعوب الناطقة بها.

5- اللغة والطبقات الاجتماعية:

يجب التفريق بين المجتمعات، قبل الإيلاج في هذا الموضوع، فالتباين في اللغة بين الطبقات الاجتماعية، يظهر جليا في المجتمعات التي تبنّت الرأسمالية كنظام اقتصادي ساهم في تقسيم المجتمع إلى طبقات ظاهرة بالعين المجردة، عكس المجتمعات الأخرى، التي تتقارب فيها الطبقات والجماعات الاجتماعية خاصة من الناحية الثقافية. والاسم الذي يطلقه علماء اللغة على اللهجات الطبقية هو اللهجات الاجتماعية التي تتشعب عن لغة المحادثة في البلد الواحد تبعًا لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم. كما ترجع نشأة هذه اللهجات الاجتماعية إلى ما يوجد بين طبقات الناس من فروق في الثقافة، والتربية، ومناحي التفكير، والوجدان، ومستوى المعيشة، وحياة الأسرة، والبيئة الاجتماعية، والتقاليد والعادات، وما تزاوله كلُّ طبقة من أعمال ووظائف، وآثار هذه الوظائف في عقلية المشتغلين بها (وايف،ع: 1951،ص 91). فاللغة إذن مرتبطة و بشكل مباشر بطبقة الفرد الثقافية، فأفراد

الطبقات الفقيرة، يتقاسمون فيما بينهم لغة الفقر والعوز والحاجة، ويتحدثون من خلالها عن طموحاتهم المحدودة في الحياة، أما أفراد الطبقة الوسطى فهم أحسن حالا بلغتهم من أفراد الطبقة الفقيرة، كما يوجد في لغتهم مصطلحات يستعملها الأغنياء في تخاطبهم.

6- اللغة السرية أو الخاصة :

وهي تلك اللغة التي تستعملها طائفة تخشى سلطة المجتمع، وتهرب من عقابه، وتحاول أن تخفي عنه أمرها (لعيبي،هـ: 2009، ص 142) ، وهذه اللغة هي اتجاه آخر في التعبير خاص بطبقات المجرمين، والخارجين عن القانون، والمخنثين، وتعتبر هذه اللغة من ألوان اللهجات الطائفية الموجودة في كل مجتمع، فهي لغة اللصوص، ورجال العصابات، ولغة الحشاشين، ومن يتعاطون مخدرات يحرمها مجتمعهم، فَهُم يصطنعون مفردات وتعبيرات لا يعرفها من ليس منهم.

واللغة التي تلجأ إليها هذه الجماعة في الأغلب تعطي بعض الدلالات الجديدة في اللغة المشتركة، وتعتمد على الاستعمالات المجازية، وقد تستعمل كلمات مأخوذة من لغات أجنبية محرفة أو غير محرفة، ويمكن أن تخترع بعض الكلمات والتعبيرات اختراعا.(السعران،م:1985،ص 36، بتصرف).

خاتمة:

هذا البحث هو محاولة لإبراز أهمية الجانب الاجتماعي في دراسة اللغة والكشف عن أسرارها ذات الصلة بحياة المجتمع. إن الأسباب التي تؤدي إلى التفرع اللغوي، وأهم العوامل التي تؤثر في سيره ونتائجه في المجتمع الواحد،

ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة، كاختلاف المناطق بعضها عن بعض في النظم الاجتماعية والأعراف والتقاليد والعادات ونواحي التفكير، واختلاف الطبقات التي تسكن البلد الواحد بعضها عن بعض في المهنة والثقافة والتربية ومستوى المعيشة، وحياة الفرد، وما يسود كل منطقة من مناطق المجتمع وكل طبقة من طبقات سكانها من ظروف، ومدى اختلاط الرجال بالنساء في مجال ما، أو تعايش كلا الجنسين بمعزل عن الآخر.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ميشال زكريا، 1972 الألسنية(علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، ط3، مصر، الهيئة العامة للكتاب.

2- إبراهيم السامرائي، 1966، التطور اللغوي التاريخي، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، دار الرائد للطباعة.

3- إبراهيم السامرائي، 1961، دراسات في اللغة،ط1، بغداد، مطبعة العاني.

4- كمال بشر، 1972، دراسات في علم اللغة، مصر، دار المعارف.

5- سورة الحجرات، الآية 4.

6- لويس جان كالفي، ترجمة محمد يحياتن،2004، علم الاجتماع اللساني،الجزائر، دار القصبة للنشر.

7- كمال بشر، 1997، علم اللغة الاجتماعي، ط3، القاهرة، دار غريب.

8- علي عبد الواحد وافي، 1973، علم اللغة، ط4 ، القاهرة ، دار النهضة.

9- هادي نهر لعيبي، 2009، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، الأردن، عالم الكتب الجديد.

10- فندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، 1950،اللغة، مصر، مكتبة الأنكلو المصرية - مطبعة لجنة البيان العربي.

11 أبو ريشة زليخة، 1966،- اللغة الغائبة- نحو لغة غير جنسوية، عمان، مركز دراسات المرأة.

12- عبد الغفار حامد هلال، 1984، اللغة بين الفرد والمجتمع، الرباط، مجلة اللسان العربي، العدد 23، المكتب الدائم لتنسيق التعريب.

13- برهومة عيسى، 2002،اللغة والجنس، الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع.

14- محمود السعران، 1958 اللغة والمجتمع رأي ومنهج، بنغازي، ليبيا، المطبعة الأهلية.

15- علي عبد الواحد وافي،1951، اللغة والمجتمع، مصر، دار الكتاب العربية.

16- لطفي بوقربة، 2009، محاضرات في اللسانيات الاجتماعية، الجزائر، جامعة بشار.

17- ابن خلدون، 2003، المقدمة،ط 1، بيروت، دار الفكر.